(c) www.nidaulhind.com

تاريخ الإسلام في بلاد مليبار

الإسلام في مليبار نموذج مثالي لبناء الحاضر على آثار السابقين الأولين

عبد النصير أحمد المليباري الأزهري
(ماجستير في العقيد والفلسفة - جامعة الأزهر)

وهذا تاريخ أهل الإسلام في منطقة جنوبية من شبه القارةالهندية، وهي البلادالمليبارية وما حولها بالتحديد. ومما تناوله الباحثون في تاريخ امتداد نفوذ الإسلام من الجزيرة العربية نحو القارة الهندية الكبرى وانتشار تعاليمه الحميلة بين الشعوب الهندية المختلفة نعلم أن الإسلام قد انتشر عبر سواحل الهند الغربية تلبية لحاجة المجتمع الهندي وطواعية واقتناعا من المستوطنين الهنود لا عن كره أو عنف أو شيئ من هذا القبيل. وكل ما يذكر في سبب دخول نور الاسلام – من إسلام أحد الملوك عقب مشاهدة انشقاق القمر ووصول مالك بن دينار والوفد المرافق له وتنقلات القوافل التجارية العربية – في هذه البلاد التي كانت ولاتزال مملئة بالوثنية الجاهلية بأبشع صورها وأشكالها يؤيد ما قلنا ويشهد له.

تكونت هذه الجالية المسلمة من التزاوج والتوالدوالاعتناق الاختايري للدين الإسلامي فأصبحتجزء لايتجزئ من جسد الأمة الإسلامية التي تمثل أرقى حضارة شهدتها البشرية. وانتشرت تعاليم الإسلام في هذا البلد انتشارا واسع المدى بدون إرساليات ولا حملات تبشير ولا إغراء بالأموال والآمال وبدون سيف ولا رصاص. وذلك أن الإسلام له طاقة ذاتية هائلة وشحنة روحية قوية تجعله ينتشر بدون سلاح مدمر ولامغريات مادية، بل هو منهل عذب يتعطش له كل ذي عقل وفكر، وخير شاهد له مانراه اليوم في بلاد غربية مثل أمريكا – من سرعة إنتشار الإسلام وتزايد عدد المؤمنين به.

ونشأ في مليبار من بين هؤلاء عباقرة وأبطال لاتزال الأمة تفتخر بهم وتعتز بآثارهم على مدى الأيام والدهور، وقاموا بدورهام في تنشيط الحركات الإسلامية العالمية بجهودهم المستمرة، كما أنهم ساهموا في بناء الدولة الهندية مساهمة كبيرة. ففي سبيل إثراء المكتبة العربية جادت أقلام عدد كبير من العلماء بمؤلفات لايحصيها العدد، وجاء بعضها فريدة في بابه ومرجعا أساسيا للباحثين الأكادميين، وقد سجلها الكتّاب العالميون واعتمدوا عليها. وهكذا نرى الشيخيه زيني الدين المعبري– الجد والحفيد– والقاضي محمدبن عبد العزيز الكاليكوتي في ثنايا أعمال المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان والمؤرخ المسيحي جرجى زيدان وما إلى ذلك. وقد تعرض الرحالة البندقي Venice الكبير «ماركو بول» (١٢٥٤– ١٣٢٤ م.) والرحالة المغربي الإسلامي الكبير الشهير العلامة ابن بطوطة رحمه الله – الذان مرا بيلاد مليبار وتُغطّي أعمالهما مساحة إثنوجرافية واسعة بالنسبة لبلاد مليبار – للحديث عن مليبار وأمجاد أهلها. وبالنسبة لخدماتهم تجاه وطنهم فلا أرى هذا المقال يتسع لذكرها مفصلا، لقد كان قائدو جيش السامودرين – الأسرة المالكة لمليبار– متكونة من أبطال أبناء المسلمين وعلى رأسهم عائلة «كنج علي مركار»

(c) www.nidaulhind.com

رحمهم الله الذين لم يستوفوا حقهم من الدراسة والبحث في الدوائر الحكومية الهندية تحت وطأة الهيمنة الهندوكية المتطرفة في المناصب الأكادمية الكبرى. ولايخفى على ذي بصيرة في التاريخ العالمي ما بذله المجاهدون المسلمون من نفسهم ونفيسهم في تطهير أرضهم وعرضهم برا وبحرا من ملاعين المستعمرين؛ البرتغال والإفرنج والإنجليز. أليس «الساموتري» الكاليكوتي هو الذي راسل وكاتب الحاكم المصري «قانصوه الغوري» رحمه الله والسلطان العثماني الباسل المجاهد «سليمان القانوني» رحمه الله من أجل المساعدة ضد هؤلاء المغتصبين، أليس من العار والشنار أن محاولة الجيش العثماني بقيادة «حسين الكردي» لإنقاذ أهل مليبار؛ بل الهند كلها باسم الزعفرانية الهندوكية.

ويكفي الأمة الإسلامية المليبارية فخرا واعتزازا– بل لجميع الشعوب والأمم التي تمضي قدما للحرب على الاستعمار الوحشي الذي يقوده شياطين الغرب والأمريكان – ثلثة كتب لعلماء ثلاث أجلاء مليباريين كُتبتْ لإعلان الحرب المستعرة ضد المستعمرين في عصر لم يكن هناك «كارل ماكس» ولااليساريون ولم يفكر البشرية بعد في الأنظمة الديموقراطية الحديثة. هم الأئمة أبويحيى زين الدين بن على بن أحمد الشافعي الاشعري الجشتي الشطاري (المتوفى عام ٩٦٨ هـ) – زين الدين آل مخدوم الجد– صاحب «تحريض اهل الإيمان على جهاد عبدة الصلبان وزين الدين بن محمد الغزالي بن زين الدين بن على بن أحمد الشافعي الأشعري القادري (المتوفى عام ٩٨٧ هـ) –زين الدين آل مخدوم الحفيد – صاحب «تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغالين» والقاضي محمد بن عبد العزيز الأشعري القادري الكاليكوتي (المتوفى عام ١٠٢٥هـ) صاحب «الفتح المبين للساموتري الذي يحب المسلمين».

وهناك مؤلفات أخرى لعلمائنا الأقدمين في مليبار في مثل هذه الموضوعات، والكثير منها قد طبعت وانتشرت في الآفاق ومازال المتبقى منها ينتظر في أدراج الدواليب هنا وهناك من يخرجه إلى النور بعد تقيقات لازمة ودراسة هادفة.

ومما يذكر هنا أن اسلافنا كما تركو آثارا طيبة في اللغة العربية ابتكروا لغة أخرى–أو منهجا آخر بتعبير أصح – هي لغة (عربي مليالم) التي تحمل في طياتها آثار فكرية وتاريخية خالدة مثل «منظومة مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أحمد الكبير الرفاعي والسيدة الطاهرة نفيسة القاهرية المصرية» وأدبيات إسلامية أخرى،لابدأن تجند جمعياتنا وجامعاتنا مجموعة من الباحثين الجادين لسبر غور مافي هذه الأدبيات من الكنوز العلمية والفلسفية والكلامية والصوفية والفقهية والتاريخية وغيرها بدلا من أن نرميها في مزبلة التاريخ أو ندع أدعياء الإصلاح يتهمونها بالشرك والخرافات. وهذا الأسلوب في الحقيقة عبارة عن اللغة المليبارية تكتب بحروف عربية، وتخص بالمسلمين دون غيرهم. ولم يكن المليباريون بدعا من الناس في هذا المنهج، ونحن نرى مثل هذه المحاولات بين مسلمي بلاد غير عربية مثل إندونيسيا وماليزيا وغيرها حيث استخدموا حروفا عربية للغاتهم العجمية.

ومما نلاحظه على طبيعة المؤلفات لأهل مليبار من تغلب الجانب النقلي–من فقه وحديث

(c) www.nidaulhind.com

وتاريخ وتصوف –على الجانب العقلي–من كلام وفلسفة وما إلى ذلك – نعلم أن الظروف لم تحوجهم إلى تأليف فى العلوم العقلية حيث كان المجتمع المسلم في مليبار كان على سيرة السلف الصالح، أهل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجماعة الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وكان المسلمون ينقادون بسهولة لكلام العلماء، وما كانو يعرفون الجدال والمراء في الباطل، ولم يتمكن الأفكار المنحرفة– مثل تعطيل الفلاسفة والمعتزلة وتجسيم الكرامية وغير ذلك –من الحضور في حياة المجتمع الإسلامى في مليبار على خلاف مانجد في سائر الأقطار الإسلامية مثل بغداد والبصرة والكوفة وسمرقند ونيسابور والقاهرة ودمشق وحتى شمال الهند وغيرها.

وحتي التصوف الذي امتزج –على المستوى العالمي– في كثير من الأحيان بالفكر الفلسفي والكلامي والنظريات المعقدة لم يكن له كبير حظ في الأجواء المليبارية – فيما أرى– بل تصوف المليباري أشبه ما يكون–غالبا–عن مدرسة الشيخ الطائفة جنيد البغدادي والسيد التابعين ابن عربي وعبد الكريم الجيلي. وذلك لأن العلماء كانو يركزون على الناحية التربوية والسلوكية أكثر من الناحية الفكرية أو النظرية تربيةً لحياة الأفراد وتطهيراً لقلوبهم.

وكانو يركزون على جمعٍ المتون التى تزكّى النفوس وسردِ الآثار التى تربى الأجيال دون أن يخوضوا في نقدها – غلي خلاف ما نراه في خارج مليبار حيث العلماء اشتغلوا بنقد الحديث لأهداف متعددة،

وفي الحقيقة إن تركيز هؤلاء الأسلاف على الأخلاق والعمل قد أثر في نفوس الأمة تأثيرا بالغا، حيث إن مستوى تمسك المسلمين في مليبار والتزامهم ببالدين الحنيف مازال مضرب مثلٍ بين من يعرفهم من أهل الهند وغيرها. ونجد مسلمي مليبار يحافظون – قدر المستطاع – على آداب السلف الصالح وسسلوكياتهم في المأكل والمشرب والمسكن كما أنهم يتحرون أرجحَ الأقوال في أحكام الشريعة – وهم على مذهب الإمام ابن إدريس رحمه– دون البحث عن القيل والقال في كل مسئلة صغيرةً أو كبيرةً مدعين أن الدين يسر.

ويدل على صدق هذا ما نراه اليوم في كيرالا من منظر حيوي ونشاط قوى للدين الإسلامي الأصيل. ولم يتمكن أي قوة – سواء قوة السلاح المدمر أو قوة الماديات المغرية أو غير ذلك – من اضعاف قوة الإسلام أو إطفاء نوره، ولم يتمكن كذلك أيّ فكر دخيل أو تيار مزيف من البقاء– ولا حتى الدخول فضلا عن البقاء– بين مسلمي كيرالا. وكان ذلك بفضل جهاد هؤلاء العظماء وجهودهم المستمرة.

والكل كانوا من أهل السنة والجماعة؛ شافعية في الفروع أشعرية في الأصول، صفا واحدا كلمة واحدة؛ أمة واحدة وراء أئمتهم الصالحين.وكل ما حدث فيما بعد هو على حين غفلة من أهل السنة والجماعة؛ حينا تقاعدوا عن الجهاد وتكاسلوا عن المسؤوليات التي تستجد في كل عصر، وحينذاك فقط بدأ ينتشر بينهم الفتن بشتى صورها وأنواعها كما استطاعت القاديانية دخولها بالمال والتكنولجيا الجديثة.

وبفضل خدماتهم الجزيلة وخطواتهم الرشيدة يتمتع اهل الإسلام بسمعة طليبة وقوة حيوية